القصص

على هامش السيرة

حفر زمزم

للدكتور طه حسين

(٢)

لاهم قد لبيت من دعاني ... وجئت سعي المسرع العجلان
ثبت اليقين صادق الايمان ... يتبعني الحارث غير وان
جذلان لم يحفل بما يعاني ... لاهم فتصدق لنا الاماني
مالي بما لم ترضه يدان

كان صوت عبد المطلب يندفع بهذا الرجز عريضا يملأ الفضاء من حوله ، نقيا يكاد يمسك الجنان فيما يحيط به من الاشياء . وكان كل شيء مستقراً لا يضطرب فيه الا هذا الصوت العريض النقي والا هذه الذراع التي ترتفع بالمعول قوية ثم تهوي بها عنيفة ثم تدعه الى المسحاة فتقرف بها التراب في المكتل ، والا هذا الغلام الناشيء يرقب حركة أبيه ويسمع صوته ويرد عليه رجع هذا الصوت كلما وصل في الدعاء الى هذا البيت.

لاهم فتصدق لنا الاماني

حتى اذا امتلأ المكتل حمله بذراعيه الضعيفتين وأسرع في شيء من الجهد الى خارج المسجد فألقى مافيه ثم عاد وأبوه يرفع المعول في الجو ويهبط به الى الارض ويملأ فضاء البيت بصوته النقي العريض والعرق يتصبب على جبينه ولكنه لا يحس جهداً ولا يجد اعياء . وكانت الشمس قد ألقت على الارض رداء من النور نقيا ولكنه ثقيل همد له كل شيء وأوى له الناس الى بيوتهم يقيلون . وانقطعت له الحركة وخفتت الاصوات الا هذه الجنادب التي يروقها وهج الشمس ويسكرها لهب القيظ فتصدح بالغناء اذا سكت كل شيء وقد أخذ الغلام يحس لذع الجوع وحر الظمأ ولكنه لا يقول شيئا بل لا يكاد يفكر في شيء ، انما سمعه وقلبه لصوت أبيه ، وعيناه للمكتل والتراب ، ونشاطه لافراغ المكتل اذا امتلأ . وهما في ذلك اذا غلام يسعى قد أرسلته حمراء يحمل الى الرجل والغلام شيئا من طعام وشراب ، حتى اذا انتهى اليهما وضع ثقله وقال : مولاي هذا غداؤك وغداء الصبي قد أعدته سيدتي العامرية هيئته بيدها وهي تعزم عليك لتصيبن منه ولترفقن بنفسك ولترفهن على هذا الصبي الحدث : لقد قال الناس جميعا وهذا كل شيء لهذا الوهج الذي يصهر الابدان ويحرق الجلود وأنت فيما أنت فيه من جد يضني وجهد يهلك لا تقيل ولا تستريح ولا ترفق بهذا الطفل الذي لم يتعود الجهد والعناء . بعض هذا يكفيك ما تريد . ولكن عبد المطلب لم يسمع للغلام الا باذن معرضة ، ولم يستقبله الا بوجه مشيح ، انما هو ماض في رجزه واضطراب يده بالمعول ارتفاعا في الجو وهبوطا الى الارض ، والصبي يتبعه بسمعه وقلبه ، ولكن عينه ربما اختلست نظرة قصيرة ملؤها الجوع والظمأ والنهم الى هذه السلة وما فيها . وربما وقف ذهنه الصغير عن متابعة أبيه وانصرف الى ماؤى هذه السلة يعدده ويحصيه ويتمثله . ان فيها لشواء غريضا وان فيها للبنا يعازجه عسل هذيل الذي حمله خاله فيما حمل من هدايا البادية حين أقبل يزور أخته منذ أيام . وان فيها لماء عذبا ومن يدري ؟ لعل حمراء قد نقعت فيه شيئا من زبيب الطائف ، فانها تجيد ذلك وتحسنه . وعبد المطلب ماض في رجزه وفي حركة يديه بالمعول والمسحاة وقد امتلأ المكتل فيهم الصبي أن يحمله ليلقي مافيه ويدنو الغلام يريد أن يعينه في ذلك . ولكن عبد المطلب ينتهره نهرا عنيفا

« اليك يا غلام فما لهذا الامر الا عبد المطلب وابنه .

ويمضي الصبي بالمكتل ويعود ، ولكن الرجز قد انقطع وذراع عبد المطلب لا تضطرب بالمعول صعودا وهبوطا ، وانما هو مطرق الى الحفرة ينظر فيها فيطيل النظر ثم يرفع بصره الى السماء فيطيل رفعه ثم ، يدير عينه من حوله كأنه يريد أن يلتمس شيئا أو أن يلتمس أحدا . ثم يدعو ابنه في صوت ملؤه الدهش والحيرة والرضى والاشفاق :

« هلم يا غلام أنظر أترى ماء ؟ — كلا يا ابت وانما أرى ذهبا وسلاحا ؟ — ومع ذلك فلم أوعد بذهب ولا سلاح ، وانما وعدت بالماء لسقي الحجيج : انوراء هذا الامر لسرا . ولكن هلم يا بني فما أرى الا أن الظمأ والجوع قد أجهداك » .

وأقبل الرجل وابنه على السلة فاصابا مما فيها ذاعلين واجمين ما أحسب أنهما وجدا لما يصيبان طعما وأحسا له ذوقا ، يصرفهما عنه هذا الذهب الذي يتوهج في الحفرة وهذا السلاح الذي يظهر أنه كثير ثقيل . حتى اذا فرغا من طعامهما عاد عبد المطلب الى الحفرة فيستخرج مافيها فاذا غزالان من ذهب نقي ثقيل واذا سيوف ودروع . فيكبر ويرفع صوته بالتكبير ويسرع اليه أفراد قايلون كانوا قد بدأو يفدون الى المسجد كدأب قريش حين كانت تخف وطأة القيظ . فاذا رأوا هذا الكنز دهشوا ثم تسايحوا ثم بغيض الخبر فيتجاوز المسجد واذا شباب قريش وشيوخها يقبلون سراعا مزدحمين يسرع بعضهم حب الاستطلاع ويسرع بعضهم الآخر الطمع في الغنيمة ويسرع بفريق منهم باعث ديني غامض فيه خوف وفيه رجاء وفيه اكبار للآلهة وتوقع

المعجزة الخارقة . حتى اذا توافوا جميعا واستوثقوا من أن عبد المطلب قد وجد كنزا وعرفوا حقيقة هذا الكنز وقوموا ذهبه الخالص وصناعته البارعة وما فيه من سيوف ودروع أداروا أمرهم بينهم . لمن يكون الكنز؟ قال هشام بن المغيرة انما هو لقريش فقد وجد في المسجد وكل ما وجد داخل الحرم في أرض عامة فهو لقريش وقال حرب بن أمية : انما هو لبني عبد مناف خاصة فهم الذين احتفروا وهم الذين ظفروا وما ينبغي لقريش أن تغلبنا على خير ساقته الينا الآلهة وتنازع القوم وطال النزاع واختصم القوم واشتدت الخصومة وعبد المطلب صامت مطرق لا ينطق بكلمة ولا يأتي بحركة . هنالك صاح به حرب: مالك لا تقول وانت الذي وجد الكنز وانت أحق الناس به ! . قال عبد المطلب في هدوء وأناة ما ينبغي أن يكون الكنز لأحد حتى تستشير الآلهة فما حفرت ولا ظفرت الا بأمر خفي وما أرى الا أن للآلهة في ذلك ارادة وقدرا لا نبلغهما حتى نسأل الكهان . هنالك وجمت قريش وغضب بنو عبد مناف وانكروا جميعا في انفسهم أن يشرك عبد المطلب معهم الآلهة في هذا الكنز الدفين . ولكنهم لم يقولوا شيئا وما كان لهم أن يقولوا شيئا ! ومن الذي يستطيع أن يرد قضاء الآلهة ؟ حمل الكنز اذن الى الكعبة وأقبل القوم الى الكاهن يسألونه أن يضرب بالقداح وها هو ذا يضرب بقداحه ثم يضرب ثم يضرب بين قريش والكعبة فتخرج القداح للكعبة ثلاثا ويصيح عبد المطلب لقد ظهر قضاء الله فليكن ما أراد ! تفرقوا يا معشر قريش . . تفرقوا يا بني عبد مناف فليس لأحد منكم في هذا الكنز نصيب . أما هذا الذهب فسيضرب صفائح على باب الكعبة ، وأما هذه السيوف فستعلق عليها ، وأما هذه الدروع فستدخر في خزانتها . ثم التفت الى ابنه وقال هلم يا حارث اتبعني لنمض فيما كنا فيه وتفرقت قريش وفي صدورها غل وحنق . ولكن ثلاثة نفر من أهل الظواهر انتحوا ناحية وأقاموا يرددون الطرف بين الكنز والكعبة وعبد المطلب . ثم انصرفوا وقد فهم بعضهم بعضا . وأصبح الناس ذات يوم واذا الكعبة قد جردت مما علق عليها من ذهب وسلاح .

وراح عبد المطلب مع الماء الى أهله محزونا مكمودا راضيا مع ذلك لم يفارق قلبه الأمل . فاستقبلته سمراء فارة لم تسع اليه ولم تبتسم له . ولكنها لم تعرض عنه ولم تتجهم له . فلما سألها عن هذا الفتور أطالت الصمت وألح في السؤال . قالت : وهل تريد أن أبتهج ولم تريد أن أبتسم ؟ لقد علمت منذ زفني أبي اليك انك قد تزوجت رجلا لا كالرجال . لقد أحببتك ولكني أنكرتك . لقد أملت فيك ويئست منك . ثم عاد الى الأمل أول أمس ثم ها أنت ذا ترد الى اليأس مظلما حالكا قبيح الوجه بشع المنظر كأنه الغول . ماذا ؟ لم يك الطائف أربع ليال يهيب بك ويلح عليك ارهابا حينا مصرحا حينا مضمرا داعما حتى اذا أذعنت لأمره وانثنيت الى ما سبق اليك من خير وادخر لك في الارض من غنى زهدت فيه وانصرفت عنه واشفقت أن تسلمه الى قريش أو الى عبد مناف . فيقال « الفى بيده ونزل عن غنيمته فصرفت ذلك عنك وعنهم الى هذه البنية عليها الذهب وتمزها بالسلاح ! وماذا تصنع الاحجار القائمة بذهبك وسلاحك ؟ قه أنتم يا معشر قريش ؟ انكم لتكبرون من هذا الماء النضوب مالا نكبر نحن في البادية ولولا حاجاتنا ومناضلنا لما هبطنا الى بطاحكم هذه حاجين ولا معتمرين ولكنكم قوم ضعاف تكبرون مالا يكبر ويعركم أن أمتعة الناس تهوي اليكم عفوا بينما نحن نقبل اليكم بالدين وينصرفون عنكم بالطاعة ، وانما يقبلون عليكم بما عندهم من عروض . وينصرفون عنكم بما تحملون لهم من الآفاق . هلا طاولت قريشا وانتظرت بهذا الكنز حتى تروح الى ، لقد كان فيه غنى لك ولهذا الصبي الذي تعنيه وتضنيه منذ ألم بك ذلك الطائف . هلا تريث واصطعت الاناة أداة لاحتويت الكنز ولأصبحت أغنى قريش وأكثرهم مالا ولما استطاع بنو عبد شمس ان يكاثروك بما علأ خزائنها من الدراهم والدنانير . اذاً لأقبلت اليك بنو عامر بقوتها وبأسها فاعزتك ومنعتك من قريش ولكنك أشفقت وملأ قلبك الفرق وعبثت بنفسك بقية من كبرياء فأنفرت نفسك وقضيت على ابنك هذا أن يكون دون بني حرب ثروة ومالا . قال عبد المطلب محزونا : هون عليك يا سمراء وأقلل اللوم فما أرى انك تفقهين مما ترين شيئا . لا أحب لوجهك هذا التضر أن تعلوه غبرة الحرص على المال وما أحب لصوتك هذا العذب أن تشوبه مرارة الحديث عن المال . وما أرضى لك وان نسلتك أشراف بني عامر أن تمضي من أمر قريش ان فيكم أهل البادية لطباعا غلاظا ونفوساً يملؤها الطمع أنتم لا تحسنون الدين ولا تفقهون الغيب ولا تؤمنون الا بما ترون ولا تحامون الا القوة الظاهرة . لقد كنت أحسب أن مقامك الطويل هنا قد غير نفسك بعض الشيء فاذا أنت اليوم كما كنت يوم انحدرت من بادية نجد الى هذه البطحاء . هون عليك ولا تشغل نفسك بما ليست منه في قليل ولا كثير . لقد أمرني الطائف أن احتفر ووعدني أن أجد الماء لأسقي الحجيج لا أن أجد الذهب لأغنيك وأدخل الخصب على بني عامر . فليس هذا الذهب لي ولا لقريش وانما عثرت لأمر يراد وانبي لمن قوم لا يحبون الغصب ولا يستأثرون بما ليس لهم ولا يهتضمون الحقوق ، فان تكن غلظة الاعراب وجفوة البادية وجحودها قد شاقتك فذري رحالك غداً والى بأهلك فهم أحق بك وأدنى اليك . قال ذلك ونهض مغضبا وتركها واجمة بهذا الحديث العنيف تقاوم غيظا لم يلبث أن استحال الى دموع غلاظ عثرت على خديها كأنها لؤلؤ العقد قد خانه النظام .

وارتفع صوت عبد المطلب بالتكبير حتى امتلأ به المسجد وفاض من حوله وحتى اضطربت له مجالس قريش في أفناء البيت فخف الناس اليه وهم يقولون : ماذا ان هائم هذا الا مطروقا يلقى من الجن شططا ويريد أن نلقى منه شططا . اقبلوا اليه سراعا يزدحمون وقد آلى اشرافهم لئن وجدوه قد ظفر بكنز أو عثر على غنيمة ليغلبنه عليها وليبطنه منها نصيب رجل من قريش وانتهوا اليه . وهو يكبر ويصيح هذا طي اسماعيل هذه بئر زمزم ، هذه سقاية الحاج ، لقد صدق الوعد وتحقق الأمل .

فنظروا فاذا عبد المطلب قد وجد الماء ، واذا هو يستقي فيشرب ويسقي ابنه ، ويرسل الماء بيديه من حوله كأنه يريد أن يسقي الارض والهواء والناس . هنالك ابتسموا له ورقوا به وقالوا: لقد بررت بقومك ياشيبة وانبطت لهم هذا الماء يستقون منه اذ ضنت عليهم اليابيع فوصلتك رحم ، لتعرفن لك قريش هذه اليد . قال ما أنتم وذاك ؟ هذه بئري قد حفرتها ، وكشفت طيها بأمر هبط الي من السماء . وهذا شرب ساقه الله الي سأسقيكم منه ان أردت . ولكني أسقي الحجيج منه قبل أن أسقيكم فذلك أمرت وأنا على ذلك قائم . قالوا يا ابن هاشم انك لتسرف على نفسك . وتشط على قومك وتخاق على السماء . ان هذه الارض ليست لك وانما هي لله ثم لقريش ، وان كل ماوجد فيها فهو لله ثم لقريش ، وانا لم نشهد أمر السماء حين تنزل اليك ومتى تنزل أمر السماء على الناس الا من طريق الكهان . فأين الكاهن الذي أمرك أن تحتفر ؟ قال : يا قوم خلوا بيني وبين الماء . فوالله لن تبلغوا مني شيئا انكم تكثرونني بعددكم وعديدكم . ولكن الذي أمرني باستنباط هذا الماء حري ان يردعني كيدكم ويحميني من ظلمكم . انكم تستضعفونني حين ترون أني ابن واحد ولكن الذي سخرني لهذا الأمر خليق أن يمنحني من الولد من أكاثركم به وانى أقسم لئن منحني من الولد عشرة ذكورا أراهم بين يدي لأضحين له بواحد . وسمع بنو عبد مناف مقالة عبد المطلب فثارت نفوسهم وتحصبوا له وقاموا من دونه يردون عنه عدوان قريش وكاد الشر أن يقع بين القوم ولكن عبد المطلب قال : ياقوم فيم قتل الارحام وحفر الذمم واراقة الدماء ؟ انى والله ما أوثر نفسي من دونكم بشيء فان أبيتم أن تؤمنوا لي فهلم الى حكم فليقض بيننا . قال الملأ من قريش لقد أنصفكم ابن أخيكم من نفسه . فليكف بعضكم عن بعض ولنحتكم الى كاهنة بني سعد هذيم فما نعرف أبصر منها بمواقع الحكم .

وكانت قافلة قريش تتجهز للرحلة الى الشام فأجمع القوم أن يصحبها رحلهم الى الكاهنة في معان . فلما فصلت العير صحبها عبد المطلب في عشرين من بني عبد مناف وأرسلت قريش معها عشرين من بطونها المختلفة ومضى القوم ترفعهم النجاد وتخطهم الوهاد حتى طال بهم السفر ونفد ما كان معهم من ماء واشتد بهم الظمأ وأحرق أكبادهم الصدى وغدوا ذات يوم في فلاة منبسطة يحار فيها الطرف دون أن يهتدي الى أحد ليس فيها عين ولا بئر ولا شجرة ولا عشب وانما هي أرض ملساء جرداء تقع عليها أشعة الشمس الملتهبة فتلهبها تحت الاقدام وقد يئس القوم من كل روح وقنطوا من كل وجهة فاجتمعوا يتشاورون . فقال قائل منهم ياقوم انما هو الموت فأنتم بين اثنتين : اما أن تموتوا ضيعة وتصبح أجسامكم نهبا لسباع الارض والجو لا تواريكم يد في التراب ولا تؤوى نفوسكم الى جدث تطمئن فيه واما أن يقوم بعضكم على بعض ويوارى بعضكم بعضا فيكون لكل منكم حفرته وتمرن نفوسكم اذا هامت في الفضاء الواسع والت بأهلها في بطاح مكة وظواهرها كيف تهتدي إلى أجسادها فتلم بها وتسكن اليها . والرأى أن يحتفر كل منكم حفرته ، وان تقيموا فأيكم ذهب الصدى بنفسه ورآه أصحابه وبكوا عليه . فلا يذهب منكم ضيعة الا رجل واحد تمتد به الحياة الى أقصى أجل . قال ذلك قائلهم ونهض فاحتفر حفرته . وتناثل القوم بعض الشيء يفكرون في أولادهم وآخرتهم ويذكرون مكة ومن تركوا فيها من أهل وولد ومال . ويذكرون الشام وينظرون الى ما كانوا يحملون اليها من تجارة ويفكرون فيما كانوا ينتظرون أن يحققوا فيها من ربح . وتقدم رسل قريش الى الكاهنة يتلاومون في البئر وفي خصومتهم لصاحب الحق . ثم ينهضون والموت يثقل نفوسهم فيصمد كل منهم الى سنان يحط به حفرته في الارض .

كل ذلك وعبد المطلب ساكت ساكن لا يقول ولا يرمي ، ولكنه نهض فجأة وقال بصوته العذب الريض : يا معشر قريش ما أعجزكم ! ها أنتم أولاء تلقون بأيديكم وتنتظرون الموت وتقطعون ما بينكم وبين أهلكم وولدكم من أسباب الحياة ، وان فيكم لبقية من قوة وانى لكم القدرة على الحركة وفضلا من النشاط لا والله ما أنا بسالم نفسي للموت حتى يكرهني عليها ، هلم فاضربوا في هذه الأرض لعل الله أن يجد لكم من هذا الضيق فرجا » ووقعت ألفاظ عبد المطلب هذه من نفوس الناس موقع الغيث واذا الآمال تحيا . واذا النشاط يتجدد واذا القوم ينهضون الى رواحلهم واذا هم يؤثرون أن يتخطفهم الموت على أن يسمعوا هم اليه ونهض عبد المطلب الى راحلته حتى اذا جلس عليها وزجرها نهضت به وهمت لتندفع ولكن ماذا ! ماذا يسمع القوم ؟ ماذا يرون ؟ هذا عبد المطلب يصيح بأعلى صوته مكبرا وهم يتعثرون فاذا عين غزيرة قد انفجرت تحت خف الراحلة واذا هي تفور واذا الماء ينبسط من حولها فينقع غلة الارض المحترقة قبل أن ينقع غلة القوم الظماء !

هلم يا معشر قريش الى الماء الرواء ! قد فجّره الله لكم من الصخر الصلد . هلم فاشربوا واسقوا ابلكم واملأوا مزادكم هلم فاغتسلوا بهذا الماء الصافي النقي البارد في هذه الفلاة القاتمة المحرقة .

والقوم يضجون بالرضى والغبطة وان للابل من حولهم لأطيطا ملؤه الرضى والغبطة أيضا . ومن ذا الذي زعم أن نفوس الناس وحدها هي التي تجد اللذة والألم وتشعر بالسرور والحزن ، روى الناس ورويت الابل ، ورويت الارض وقالت رسل قريش لعبد المطلب عد بنا ياشيبة الى مكة فقد قضى علينا وان الذي سقاك في هذه الصحراء لهو الذي سقاك في مكة وساق اليك ما روى به الحجيج

وأرسل البشير على حمراء يثرب بأن زوجها قد عاد اليها سالما موفورا مظفرا . فقالت وعلى ثغرها ابتسامة الكئيب المحزون : « حبذا شيبة مسافرا وحبذا شيبة مقيما ! ولكن شيبة لن يخلص لي منذ اليوم . انه لا يريد كثرة الولد . وأي نساء قريش تستطيع أن تمتنع عليه . ثم أشرقت شمس النهار على عبد المطلب وهو يسعى الى عمر بن عائذ الخزاعي ليخطب اليه فاطمة وهي ام جماعة من ولده ينهم عبد الله